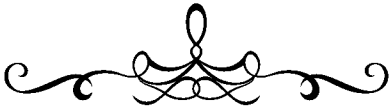

البطل "عثمان باشا" ودفاع "بلفن"

عندما يذكر دفاع "بلفن *(Plevne)*"[١٢٧] يتبادر إلى الذهن على الفور سيرة القائد البطل "عثمان باشا"، لقد أدّى الباشا مهمّات عظيمة قبل دفاع "بلفن" وبعده، سواءٌ على الصعيد العسكريّ أم السياسيّ، وقدّم للدولة العليّة خِدمات جليلة لا تُعدّ ولا تُحصى.

وُلِد "عثمان نوري باشا" بِمدينة "طُوقات" عام (١٨٣٣م)، واحتلّ اسمه الصدارة في ترتيب القادة ذوي المهارة والفِطنة الذين أنتجتهم الدولة العثمانيّة في الأعوام المائة الأخيرة، وكان والده "محمد أفندي" يعمل موظّفًا في مصلحة الجمارك في إسطنبول، أتى مع أسرته إلى إسطنبول وعمره سبع أو ثماني سنوات، واستقرّوا في منطقةِ "بشكتاش".

ولما أنهى "عثمان" المدرسة العسكريّة الإعداديّة والثانويّة، ثمّ الكليّة الحربيّة، التحقَ بالجيش ملازمًا عام (١٨٥٣م)، ورغم الموافقة على ترقيته

(١٢٧) بلفن: مدينة في شمال بلغاريا على بعد أربعين كيلومتر من مدينة "تورنو ماغوريلا"، وتعتبر مدينة بلفن من أشهر المدن البلغارية.

إلـى رتبـة ضابطٍ بـلا امتحان لنجاحه الفائق، إلّا أنّه أُرسـل إلى الجبهة إثر نشـوب حـرب "القرم"، فخدم أربـع سـنوات في الجيـش بـ"روملي" برتبة مـلازم، ونظـرًا لبطولاتـه رُقّي أولًا إلـى رتبة ملازم أول، ثـمّ نقيب، وعاد إلـى إسـطنبول وهو فـي الرابعة والعشـرين من عمره بعـد أن أنهى الكليّة الحربيّة وأصبح النقيب الأول.

تمرّد الروم

في عام (١٨٦٥م) يظهر أمامنا الباشـا في سورية وقد حصل على رتبة مقـدّم، وتحـت إمرته وَحدة عسـكريّة من المشـاة؛ لتكليفـه بالقضاء على "يوسف كرم" بمنطقة "جبل لبنان"، حيث سيطر "عثمان نوري" في غضون مدّة قصيرة على ذلك التمرّد.

إبّان ذلك تمرّد الروم بجزيرة "كريت" سعيًا لضمّ الجزيرة إلى "اليونان"، وحينما تقرّرت الدولة العثمانية إرسـال الجنود إلى جزيرة "كريت" لقمـع العصيان، أُسـنِدت تلـك المهمّة لـ"عثمان نوري" لقربـه من تلك الجزيرة، فترأس الباشا الوَحدات العسكريّة، وشنّ هجومًا على المتمرّدين -ساكني الجبل العادّين أنفسـهم من أهل روما، المتمركزين بـ"أسـفقيا" أعلى جبال جزيرة "كريت"- وقضى عليهم جميعًا.

ظـلّ المقـدِّم "عثمان نـوري" هناك إلى أن اسـتقرّ الحال، وبدأ اسـمه يشـتهر بفضل جهـده وبذله ودهائـه، وحظي بتقدير من قائـده "أكرم عمر باشا" لخِدْمَاته في قمـع عصيان كريت، وتمّت ترقيته إلى رتبة "عقيد".

قائد برتبة "لواء" في الأربعين

وعندما وقع تمرّدٌ في اليمن عام (١٨٦٨م) قررت الحكومة العثمانية إرسال فرقةٍ عسكريّةٍ بقيادة "رديف باشا" وكان العقيد "عثمان نوري" يتولى قيادة كتيبة الأولى من تلك الفرقة ورُقّي إلى رتبة عميد لنجاحه الفائق في المعارك وهو ابن الخامسة والثلاثين، لكنّ "عثمان نوري" لم يستطع أن يعتاد على مُناخ اليمن، فمرض، وأُعيدَ إلى إسطنبول عام (١٨٧١م) كي يتداوى ويتعافى.

بعد مدّةِ نَقَهٍ قصيرةٍ استمرّت بضعة أشهر، تولّى الباشا في البداية قيادة الجيش الثالث بِـ "مانستر"، ثمّ عُيّن قائدًا لفرقة "يني بازار (*Yenipazar*)"، فجذب انتباه قادته بسعة معرفته، واجتهاده، وبرفعه كفاءة قواته وحُسن تأهيله لها في كلّ مجال، وبنجاحٍ أظهره في التعليم والتدريب.

وبتكليفٍ منهم، نال رتبة فريق وهو في سنّ الأربعين.

مدّة قصيرة تولى الفريق عثمان باشا القيادة المركزيّة بـ"إسطنبول"، وبعدها عُيّن أولًا في قيادة "إيشقودرا" بـ"ألبانيا"، ثمّ قائدًا لـ"البوسنة"، ثمّ تولى رئاسة أركان الجيش الرابع المتمركزة في مدينة "أرضروم".

عثمان باشا في "فيدين"(١٢٨)

في عام (١٨٧٥م) سادت في منطقة البلقان حالة من الاضطرابات؛ فأحداث البوسنة والهرسك، وعصيان "قره داغ" والاضطرابات الداخليّة

(١٢٨) فيدين: مدينة بلغارية تقع على ضفاف نهر الدانوب في شمال غرب بلغاريا بالقرب من الحدود الرومانية الصربية.

في البلغار، حوّلت المنطقة إلى قنبلةٍ موقوتةٍ، وحاولت الدولة اتخاذ التدابير لإنهاء الاضطرابات بأسرع ما يمكن، فقامت بتعيين القادة المحنّكين على القوات بـ"روملي"، وتزامن هذا مع تعيين الفريق "عثمان نوري" باشا على فرقة الجيش الأول بـ "نيش"[١٢٩]، وعمل الباشا مدّة قصيرة في المعسكر المركزيّ، وعُيّن قائدًا لـ"فيدين"؛ فتولى في العام نفسه قيادة فرقة فيدين على حدود الصِّرْب.

واقتضت خطورة الأحوال السياسيّة أن يجعل "عثمان" باشا قواته في "فيدين" على استعداد دائم للحرب؛ فأعدّ خطط المعركة، وفي تلك الأثناء ظهرت مقاومة مسلّحة بين مسيحيّي الهرسك وانتشرت بالبوسنة، وكان "الصرب" و"قره داغ" يقومان بالتحريض وتصعيد الأحداث موقنين بمؤازرة روسيا لهم.

في السابع والعشرين من يونيو/حزيران عام (١٨٧٦م)، رفع الصرب إلى إسطنبول مذكرة رسميّة طالبوا فيها بانسحاب القوات العثمانيّة على الحدود، وتعيين الأمير الصربيّ "ميلان" على ولاية البوسنة، أمّا في الدولة العثمانيّة، فقد تمّ خلعُ السلطان "عبد العزيز" عن العرش قبل شهر -في الثلاثين من مايو/أيار عام (١٨٧٦م)- ، وقتلهُ بعد أربعةِ أيّامٍ باغتيالٍ غادرٍ.

أما السلطان "مراد الخامس" خَلَفُه، فلم تكن حالتُه الصحيّة على ما يرام.

(١٢٩) نيش: هي مدينة تقع شمال صربيا.

"بلغراد" هدف الباشا

عندما رفضت الدولة العثمانية مطالب الصرب، قاموا في الثاني من يوليو/تموز عام (١٨٧٦م) بإعلان الحرب على الدولة العثمانيّة.

كان الفريق الروسيّ "جرنايف" على رأس القوات الصربيّة، وهو من الأسماء البارزة لحركة الصقالبة، وكان ذلك الفريق يسعى إلى تحريض شعوب البلقان على الإسلام بشعارات، مثل:

"كلّ شيء للصقلبيّة المقدسة، فلنحارب في سبيل صليب الأرثوذكس، تحيا وحدة شعوب البلقان".

وكان يأمل أن تُتوج نهاية ذلك التحريض بالوصول إلى صوفيا واستقلال بلغاريا.

بدأت الحرب بهجوم جيشِ الصرب على منطقة "فيدين"، وتقدمت الكتائبُ الفدائيّةُ -المسماةُ الكتائبَ المقدسةَ- فرقَ المشاة الصربيّة، وكان "عثمان" باشا مستعدًّا للحرب، فبَاغَت بعبور نهر الدانوب، وشنّ هجومًا مضادًّا، ودارت معركة حاميَة بين الجيشين، حتى إنّ كتائب الجيش الصربيّ كلّها -وعلى رأسها الكتائب المقدّسة- قد انفرطَ عِقدُها، وفي أعقاب هذا النصر استولى الباشا على مرتفعات "إزور"، وهي منطقةٌ ذات أهميّة تخطيطيّة، وكان الهدف التالي هو بلدة "زايجر" الممثلة نقطةَ بلغراد الرئيسة.

في السادس من أغسطس/آب (١٨٧٦م)، دخل "عثمان" باشا تلك البلدة ضاربًا الصرب صفعة كبرى، وفي التاسع والعشرين من أكتوبر/

تشـرين الأول من نفس العام، وعقبَ هزيمةِ "جرنايف" الحاسـمة تشـتّت شملُ الصرب تمامًا، وفتُح طريق "بلغراد" أمام الجيش العثمانيّ.

ازدادت شـهرة "عثمان" باشـا بهذا النصر لِمَا أظهره من إنجاز؛ فمُنح وسام المجيديّة من الدرجة الثانية مـع رتبةِ "مشير".

وقـد جعل عثمان باشـا يبكي عندما رقي في التاسـع والعشـرين من ديسـمبر/كانون الأول (١٨٧٦م)، وكان يقول في تواضُـعٍ جمّ وهو يلتفت إلى "طاهر باشا" رئيس أركان الفيلق:

- جعلوني مشيرًا -يا طاهر- ولكنّي لم أفعل شيئًا!

فقال له طاهر باشا:

- لا تقل هذا -يا حضرة الباشـا-، فغدًا سيسجل التاريخ اسمك بكلّ فخر(١٣٠).

كان هدف عثمان باشـا الاسـتيلاء على بلغراد، وبينما كان يهمّ بهجوم عظيم بجيشـه، إذ بأمر يأتي من إسـطنبول بإيقاف المعركـة، وبالفعل هُزم الصـرب، لكـنّ ظهـور الـروس ودول أوروبا على السـاحة أجبـرَ الجيش العثمانيّ على وقف إطلاق النار.

بعد أن عاد عثمان باشا إلى "فيدين" مرّة أخرى عمل على تنظيم أمور الجيـش، وقـام بإعادة هيكلةٍ لكل شـيء، فتمّ ترميـمُ المتاريس المحصنة، بحيث قام بتثبيت خمسـمائة مِدفـع للاسـتخدام المباشِـر عنـد الدفاع عن القلعة.

(١٣٠) أ.د.: متين هولاكو، المشير المصاب، إسطنبول ٢٠٠٦م، ص ٤٢.

"بلفن" مفتاح بلاد البلقان

بعد حرب الصرب عُقِد مؤتمر السلام في إسطنبول، فبحثت فيه روسيا عن ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانيّة، وعرضت مطالب تنتهك الحقوق السياديّة للدولة العثمانيّة، وكأنّ الدولة العثمانيّة هي المهزومة في الحرب لا المنتصرة.

في الرابع والعشرين من أبريل/نيسان عام (١٨٧٧م) أعلن الروس الحرب على الدولة العثمانيّة؛ وهكذا بدأت الحرب التي أُطلِق عليها فيما بعد "الثالث والتسعين" والتي كانت وبالًا على الدولة العثمانيّة، وكبّدتها خسائرَ فادحةً في الأراضي والأرواح، وكان "عثمان" باشا آنذاك مشيرًا شابًّا في الخامسة والأربعين من عمره، وكان يتولّى قيادة القوات بـ"الدانوب" المعروفة باسم الجيش الغربيّ، وكانت "فيدين" مركز ذلك الجيش.

بعد أن تجاهلت القيادة العسكريّة العليا مرّات كثيرة خطَطًا حربيّة أوصى بها "عثمان" باشا، صدر أخيرًا الأمر العسكريّ المُرْتَقَبُ، لكن بعد فوات الأوان، فقد سقطت "نيغبولي"، وتقدّمت قوّات العدوّ بسهولة من دون أن تواجهَ أيّةَ مقاومة حتى وصلت إلى "بلفن" و"لوفجه"، وعندما قرّر الباشا التحرُّك إلى "بلفن"، أُصيب بحزنٍ عميق، إذ عَلِم بإرسال الروس قوّة استطلاعيّة إلى هناك، فأصبحت أسبقيّة الوصول إلى "بلفن" هدفًا لكِلا الجيشين لا يمكن التخلّي عنه، لِمَا تتمتّع به بلفن من موقعٍ حيويٍّ من الناحية العسكريّة، ولوجودِها عند مفترق الطرق المؤدّية إلى "أورخانية"، و"صوفيا"، و"لوفجه".

نومُ الجنود

توجَّـه "عثمـان باشـا" مـن فيدين بفيلقٍ قوامُه خمسـة وعشـرون ألف جنديّ في الأول من يوليو/تموز (١٨٧٧م)، ووصل إلى بلفن في السـابـع مـن يوليو/تمـوز مـن نفس العام بالسـير قسـرًا ليل نهار، وكانت المسـافة بيـن المدينتيـن نحو مائتي كيلومتر، وقد قطعها الباشـا وجنوده في سـبعة أيـام، وذلـك ما يعادل ثلاثين كيلومترًا في اليوم، وكان كلّ جنديّ في تلك المسيرة يحمل على ظهره بندقيّة وسبعين رصاصة، وعتادًا كاملًا.

وقد أمر "عثمان باشـا" بإعدام كل من تُسـوّلُ له نفسـه بتخفيفِ حِمْلِهِ ويتـرك عتـادَه ليسـهّل حركتَـه وذلـك رميًـا بالرصـاص، وقد كنَّى الباشـا عن مشـقّة السـير القسـريّ للطبيب النمساويّ "سير تشـارلز ريان" النقيب فـي جيـش بلفن فقال: "يا ولدي، عندما كنّـا في الطريق إلى المعارك كان أيُّ جنـديٍّ ينـام وقتمـا يُتـاح له النـوم، إذ لا يَعلم أحدُهم أيـن ومتى يجد فرصةً أخرى لينام"[١٣١].

هزيمة الروس

في السابـع من يوليو/تموز (١٨٧٧م) كانت بلفن مدينة سهلة الاختراق لعدم تحصينها بالمتاريس، وكانت بلدة صغيرة محصورة بين تراكم ترابيّ غير متناسق، طرفُه منطقة جبليّة، وطرفه الآخر سهل.

ولمـا دخل "عثمان باشـا" بلفن، سـمح لجنده براحة قصيـرة، ثم بدأ فورًا في تشييد المتاريس، ولما انتصف الليل اقترب من الخطوط الأماميّة

(١٣١) أ.د.: هولاكو، المصدر السابق، ص٦٢

لـ"الروس"، واستطلع الوضع مستصحبًا معه مجموعة صغيرة من الفرسان حيث كان العدو يستعدّ للهجوم.

كان رأي عثمان باشا صائبًا، فمع فجر الغد هجم الروس لطرد القوات العثمانيّة الْمُتْعَبة من تلك المنطقة الحيويّة المهمّة، وبعد أن استمرّت معارك المدفعيّة من كِلا الجيشين قرابةَ ساعتين؛ بدأت حرب المشاة، وكان الباشا يتفقّد بالحصان العربيّ كلّ جهةٍ، ويذهب إلى نقاط المعركة كلّها، ويبثّ الشجاعة في الجنود.

في نهاية معركة استمرّت اثنتي عشرة ساعة هُزم الروس واضطروا للانسحاب، ووصل عدد قتلى الروس سبعة آلاف، وكان السرّ في نجاح "عثمان باشا" يكمن في اتّخاذه القرار الصائب والسريع، وكان عددُ ما فقده الجيش العثمانيّ في تلك الحرب المعروفة تاريخِيًّا بمعركة بلفن الأولى نحو ألفين ما بين جريح وشهيد.

"عثمان باشا" وجِياده الثلاثة

بعد عشرة أيام من تلك المعركة، قام الروس بالهجوم مرّة أخرى في الثامن عشر من يوليو/تموز عام (١٨٧٧م)، وبلغ عددهم ستّين ألفًا، أمّا جيش الباشا فقد زاد بالمَدَد إلى ثلاثة وثلاثين ألفًا.

بدأت المعركة الدامية مع الفجر إلى غروب الشمس، وبمرور الوقت أخذت عزيمةُ الجيش العثماني تخور وتنهارُ وأُصيب باليأس، إلا أنّ صلابة "عثمان باشا" ورباطةَ جأشِه قد غيّرتا سيرَ الحرب، وفي النهاية بدأ الجيش الروسي يفرّ يائسًا.

بحلـول مسـاء الغد شـتَّتت الكتائـب العثمانيّة قـوّات الروس بشـنّها هجومًا مضادًّا مباغتًا، ونكَّل الفرسان العثمانيون بمَن استطاعوا أن يقبضوا عليـه من جنود الروس الهاربين، فـي حين غرق معظم الفارّين في جدول "أوسما".

إن معركـة بلفـن الثانيـة كانت أعنف مـن معركتها الأولـى وفي تلك المعركة الدامية ذاع صيت "عثمان باشـا" ووصل عنان السـماء حتى روي أنه امتطى صهوةَ ثلاثةَ جياد ماتت جميعُها ولم يُصِبْهُ هو أيُّ أذى.

جشّـمت معركـةُ بلفن الثانية الـروسَ ما يزيد علـى ثمانية آلاف قتيل وآلاف مـن الجرحـى، أما خسـائر الجيـش العثمانيّ، فكانت مائة شـهيد وثلاثمائة جريح فقط.

فـي نهايـة تلك المعركة، وعلـى حين كانت ترتفـع معنويّات الجنود العثمانيّين، وتزيد ثقتهم بقائدهم، كانت فكرةُ استحالةِ الاستيلاء على بلفن تتأكّد لدى الجيش الروسيّ.

وفي تلك الأثناء صدر قرارٌ حاسمٌ من إسطنبول بعدم مغادرة "بلفن"، والدفاع عنها بشـتّى الوسـائل والسُّبُل، فجلب الباشـا إلى المدينة القوات الاحتياطيّـة مـن "فيدين" و"صوفيا"، علاوةً على أنّه داوم على اتّخاذ تدابير دفاعيّةٍ تحصينيّةٍ، وفي أواخر شهر أغسطس/آب وَصَلَ حجمُ جيشه أربعين ألفًا.

كان "ألكسندر" قيصرُ روسيا يتابِعُ التحرُّك عن قُرْبٍ من الميدان، فدفـع إلى الجبهة بالفِرَق الخاصّة وفِرَق القازاك -صِنف من جند الخيّالة بروسيا-

في "بترسبرج" من ناحية، ودفع من الناحية الأخرى بستّ فِرَق بأصنافٍ متنوّعة، علاوةً على استغاثتِهِ بجيش رومانيا غير المكترثِ ألبتّة حتى تلك اللحظة، وكان يقول في برقيّة أرسلها لـ "كارل الأول" ملك رومانيا:

> ''حشد العثمانيون قوات هائلة في بلفن، وقد كابد جيشُنا خسائرَ فادحة إبّان معركة "بلفن"، أرجو -إن أمكن- أن تعبروا من نهر الدانوب لمساندتنا أمام العثمانيين''.

وقّع الرومان معاهدة انضمامٍ للمعركة في صالح الروس ضدّ العثمانيّين بعد أن أحرزوا من الروس عدّةَ وعودٍ وضماناتٍ، وانضمّوا للحرب بثلاث فرق للمشاة وفرقة فرسان، فصاروا نحو خمسين ألف جنديّ، وعُيّن على قيادة الجيش "توتل" ابن الجنرال الرومانيّ الشهير، ألمانيّ الأصل، المعروف بنجاحه في مجال الهندسة العسكريّة، بينما لم تستطع إسطنبول الردّ على طلبات مساعدةٍ ألحّ عثمان باشا عليها.

قلعةٌ بُنيت باليد البشريّة

فقد صمّم "توفيق باشا" -الذي كان مهندسًا من حاشية عثمان باشا- متاريس "بلفن" المحصنة، كما شيّد خنادق خفيّة لا سابق لها، ولم تُعمل في أيّ مكان قطّ حتى ذلك الوقت، وفي أثناء الإنشاء كانت تُحمل الأتربة الناتجة عن الحفر إلى أماكن أخرى، بقصدِ محاولةِ إخفاءِ مكان الخندق، ولم يكن بإمكان الروس تحديد مكان المتاريس، لذا كانوا يطلقون النار بشكل عشوائي، وكانت كل الخنادق تتواصل وتتقاطع مع بعضها تحت الأرض، وكانت المتاريس المحصنة تتمتع ببنيةٍ عسكريّة بديعة، فالجدران -بارتفاع سبعة أمتار وعَرْض متر وثمانين سنتيمترًا قد أُحيطت بخنادق

سعتها خمسة أمتار، وعمقها ثلاثة أمتار، وكانت المتاريس محميّة بخنادق ضيقة عميقة في جهاتها الأماميّة والجانبيّة.

سـجّل التاريخ كلمات الفريق "توتلابين" عـن متاريس "بلفن"، حيث قال:

> ""بلفن" هي أقوى حصن شُـيّد باليد البشـريّة، ولن يكون من السهل الاستيلاء عليه لا سيّما لو دافـع عنه العثمانيون"[١٣٢].

الأمر بإطلاق النار على من ترك خندقه

توقّف القصفُ المدفعي الذي بدأه جنود الروس في التاسـع والعشرين من أغسطس/آب، بعد أن استمرّ خمسة أيام، وبدأت قوّات الروس تستعدّ لهجوم حاسمٍ، وخطّطوا لهجوم من ثلاث جهات.

وقـع الهجوم العامّ في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وهجم الرومان بثلاث فِرَق على منطقة يُطلق عليها الحصن الدامي بـ"كريوجه (*Grvişe*)"، وكانـوا يبغون اسـتغلال الضَّباب الكثيف لاقتحام "بلفن"، وشَـطْر الجيش وتفتيته، ولم يتأخّر الباشا في اتّخاذ التدابير اللازمة، فأكثر ما يتّسم ويمتاز به الباشـا هو احتفاظُه برباطةِ جأشِـه ولو في اللحظـات الخطِرة المتأزّمة، وسرعة تحرُّكه في مواجهة الأحداث، وكان يتمتّـع بميزةِ سرعةِ اتّخاذ القرار في أثناء الحرب.

أرسـل الباشـا كتابًا إلى "يونـس بك" يوصيه فيه بالعمـل وبذلِ أقصى الجهد، لا سيّما مسألة صبر الجنود وثباتهم في مواقعهم، فكانوا يقاومون

(١٣٢) إبراهيم أدهم، مذكرات "بلفن"، إسطنبول ١٩٧٩م، ص ١٨.

وهـم يُبْـدُون كلّ ما بوسـعهم من جهدٍ وفداء، لأنّ سـقوط حصن "يونس بـك" يعنـي سـقوط بلفن؛ فأمر "عثمان باشـا" فـي برقيّة أرسـلها إلى قائد الحصـن بقتـل الجنديّ الذي سـيترك موقعه على الفـور، وبذل كلّ نفيس وغالٍ أيًّا كان في سبيل الحفاظ على الحصن.

في نهاية المعارك التي استمرّت ستّة أيّام ليل نهار، اضطرّ الروس إلى الانسحاب مرّة أخرى، ورأى "عثمان باشا" ذلك، فأمرَ بهجومٍ شاملٍ على الحصون بخمسـة آلاف جنديّ احتياطيّ، وفي نهاية الغارة الصباحيّة التي اسـتمرّت عشر ساعات ونصفًا، تشـتّت كتائب الروس وانهزمت، واضطرّ الروس للانسحاب المرّةَ الثالثة من مشارف "بلفن".

خيمة الغازي "عثمان باشا"

يصفُ الرائد "إبراهيم أدهم بك" -أحد قادة الجيش في بلفن- عثمان باشا في مذكّرات كتبها في أثناء المعركة:

> ''وَمَـضَ فـي لحظة واحـدة على العـدو كالبـرق، وصدمهم كالصاعقة''.

كان أعظـم انتصـار حقّقه "عثمان باشـا" على الـروس هو حرب بلفن الثالثة المنقشعة يوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٨٧٨م)، ورغم أنّ عددَ جنود الروس في تلك الحرب فاقَ مائة ألف، ومدافعه أكثر مـن اثنين وثلاثيـن وأربعمائة مِدفـع، وعدد الجيـش العثمانيّ نحو ثلاثين ألفًا، فَقَدَ الروس في تلك المعركة ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، أما الجيشُ العثمانيّ فبلـغ عدد الشهداء والجرحى نحو ثلاثة آلاف أو أربعة.

ستظلّ معركة "بلفن" الثالثة خالدة مشرقة، ولسوف تشكّل وثيقة مهمّة في تاريخ الحروب، فلقد أثارت تلك المعركة صدًّا عظيمًا وحماسة ليس في البلاد فحسب، بل في العالم أجمع، وعلى إثر هذا النجاح الثالث لعثمان باشا في "بلفن"، لقّبه مجلس النواب بالبطل القومي.

حين هُزم الروس المرّة الثالثة، أدركوا أنّهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على "بلفن" عن طريق الحرب، لأنّ الخسائر قد وصلت بحلول منتصف شهر سبتمبر/أيلول خمسين ألفًا ما بين قتيلٍ وجريحٍ على مشارفِ "بلفن"، فتقرّر حصار خانق على المدينة، وفي الواقع كان الاتصال بين "بلفن" و"صوفيا" قد انقطع في التاسع من سبتمبر/أيلول بسبب فشل "حسن صبري باشا" في مفاوضاته مع الروس، أمّا حين سقط موقعا "جورنو-دوبريك (*Gurno-Dobrik*)" و"تاليش (*Teliş*)"، فقد أصبحت "بلفن" محاصرةً تمامًا، حيث قطع الروس خطوط التلغراف والاتصالات التي تربط المدينة بالعالم الخارجي.

رغم أن في البلدة منازل جميلة جدًّا لاستراحة "عثمان باشا"، إلا أنّه لم يفصل نفسه عن الجنود، وأقام في خيمةٍ بمعسكر الجيش، وشاطرهم الأحوال نفسها.

لما تمّ حصارُ المدينة من قِبل العدوّ كانت تتمّ هناك حرب استنزافٍ يوميّة، ففي الثاني والعشرين من أيلول بدأ قصفٌ مدفعيّ مكثّفٌ على المدينة، واستمرّ عدّة أيام بضراوة شديدة، ولقلّة الذخيرة فقدْ تصرّف المناضل عثمان باشا بحذرٍ، حيث كان يدّخر القذائف تحسُّبًا لأيام الهجوم.

لم يخش من قذيفة عدوه

بينما يوجّه الباشا إلى قادته التعليمات، إذ بقذيفة مدفعيّة تسقط بجوارهم، فغطّت المنطقةَ بالغبار الكثيف، وانبطحَ الضبّاط جميعًا على الأرض، ولما زال الخطر نهض الضبَّاط، فرأوا الباشا واقفًا في مكانه هادئًا.

فسأله أحد الضباط بحيرةٍ:

- سيدي الباشا، لقد انفجرت القذيفة بجانبك، ألم تشعر بالخوف؟

فأجاب الباشا بصوتٍ هادئ:

- لقد كتب الله ﷻ أسماء المقتولين في المعركة اسمًا اسمًا على كلّ قذيفة من القذائف، وحين يأتي أجل أحدنا ستقتله قذيفتُه، وأسماؤنا لم تكن على أيّ جزءٍ من تلك القذيفة، لذا سلِمنا جميعًا، ولهذا السبب لا يُخشى من قذيفة العدوّ.

عزيمة الباشا

سعى الروسُ منذ الأيام الأولى من نوفمبر/تشرين الثاني إلى المبادرات الدبلوماسيّة لتسليم بلفن، وأُولى تلك المبادرات رسالة "جراندوق نيكولا" شقيق القيصر، ناشد الجراندوق في تلك الرسالة -المرسلة بواسطة ستّة أفراد من القازاق، يرأسهم ضابط روسيّ- الباشا بالاستسلام، وأخبره بأنه اعتقل بعض الكتائب العثمانيّة بالمنطقة، وقطع وسائل الاتصالات كلّها، وأنّ بلفن حوصرت بالكامل من قِبَلِ فيلقٍ مُعزَّزٍ من حرّاس روسيا القيصريّة.

كان جواب الباشا صارمًا حيث قال:

"الجيش العثمانيّ تحت قيادتي لم يتراجع عن موضعه قطّ، وهذا برهان على بسالته ومثابرته وقدراته، وقد لازمه النجاح في حروبه كلّها حتى اليوم، ولهذا شعر جلالة القيصر بوجوب جلب مدد إلى هنا من المدفعيّين، وقوات حرَسِه الخاصّ، ولا بد أن أذكركم أن هزيمة الجيوش العثمانية في المناطق المجاورة لنا واستسلام بعض الوحدات وقطع طرق الاتصال التي تربطنا بالعالم الخارجي لا تعني بالمرة أن يستسلم جيشي لعدوه، وحماسةُ جنودي لم ينقص منها شيءٌ ألبتّة، وجيش **بلفن** عمِل كلّ ما في وسعه للحفاظ على شرفه، وإن دماءنا تسيل حبًّا في وطننا وديننا، ولسوف نواصل على الدرب نفسه إلى الأبدِ، ولن نستسلم".

أبدى "عثمان باشا" في هذه الرسالة عزمه على المقاومة حتى النهاية، رافضًا اقتراح الدوق بالاستسلام.

كان البطلُ القومي "عثمان باشا" يأمُل قدوم مشير الشمال "محمد علي باشا"، ومشير الجنوب "سليمان باشا" للمساعدة، إلا أنّهما كانا يحسدان "عثمان باشا" إلى درجة الجنون، فرغم كونهما قائدين عامّين لقوات جيوش الدانوب، إلا أنّهما عجزا عن الحصول على لقب البطل، فحملهما حسدهما على التخلّي عن "عثمان باشا"، صحيح أنّ "سليمان باشا" انتابه الندم بعد ذلك، وحاول إنقاذ بلفن، إلا أنّه عجز عن تحقيق هذا.

كان الباشا عديم الحيلة، فهو بحاجة إلى الدعم والمساعدة، وشدّةُ البرد تزداد تدريجيًّا، فكان يحرق جذوع الكروم -بالبساتين المحيطة بعد قلعها بالمعاول- للتدفئة وطبخ الحَساء، فلم يبقَ بستانٌ واحد حوله على

مساحةٍ كبيرةٍ تبلغ خمسة عشر أو عشرين كيلومترًا مربعًا، وذلك من كثرة قطع الجذوع وإحراقها.

كان من الممكن منح الجنديّ في اليوم خمسمائة غرامٍ من الخبز نصفُه من القمح والباقي من دقيق الذرة -دقيق ذرة الأرومة- وخمسين ومائة غرامٍ من لحم البقر، أمّا الحيوانات، فكانوا يطعمونها نصف كيلو ذرة، وكان عشرون إلى ثلاثين رأسًا ينفُقُ يوميًّا لِشُحّ الكلأ، كما كان الدواء والذخيرة على وشَك الانتهاء.

القَسَم على الإنجيل

رأى "عثمان باشا" أنّ من المناسب القيام بعملية اقتحام بدلًا من الجوع والاستسلام حتى ولو أودى ذلك بحياته، وفي غرّة ديسمبر/ كانون الأول عام (١٨٧٧م) استدعى قادة الفِرَق والألوية بجيشِه إلى مقرّه للتشاور واتّخاذ القرار، وفي نهاية سلسلة من الاجتماعات تقرّر تنفيذ عمليّة الاقتحام، وبدأت الاستعدادات على الفور، ووُزّعت الأدوات والذخيرة بالتساوي بين الجند؛ فأُعطيت ثلاثمائة دانة[١٣٣] لكلّ مدفع، ووُزّعت الحِراب الزائدة عن الحاجة بين الكتائب العسكريّة، ووُزّع ستّة أرغفة محمّصة حصّة يوميّة بين الجنود.

استدعَى الباشا علماء البلغار ووجهاءهم لتأمين الجرحى والمرضى الذين سيبقون في بلفن، وعددهم نحو خمسُمائةٍ وألف شخص، فأقسموا على الصليب والكتاب المقدس أنّهم سيحمون الجرحى المتخلّفين عن

(١٣٣) الدانة: قذيفة المدفع وتجمع على دانات.

الركب، وأُلصقت رايات الهلال الأحمر ولافتات بـ "الفرنسيّة" و"العثمانية" على أبواب المباني التي استخدمت كمشافي ميدانيّة.

كان "عثمان باشا" يفكّر في عدم اصطحاب أهالي المدينة عند خروجه من المدينة، وإرسال رسالة استعطاف إلى قائد القوات الروسيّة يطلب فيها حسن معاملة هؤلاء الأبرياء، إلا أنّ وجهاء القوم ألحّوا معربين عن رغبتهم في الالتحاق بالجيش، واستعدادهم للتضحية بأرواحهم وأطفالهم وأُسَرهم في هذا السبيل، فأعيت "عثمان باشا" الحيلة أمام إصرارهم، فاضطرّ إلى قبول مطالبهم.

أحدثت قافلة الأهالي من ثلاث مائة أسرة تأثيرًا سلبيًّا جدًّا على مسيرة الوحدات العسكريّة، وتسبّب ذلك في فشل عمليّة الخروج من المدينة.

هل استشهدَ "عثمان باشا"؟

قبل التحرك خاطب البطل القومي "عثمان باشا" جنوده بما يلي:

''أبنائي الجنود، سنقوم بحملتنا الأخيرة بإذن الله، ونحن اليوم في شهر ذي الحجة، إن المسلمين في العالم الإسلامي ينحرون أضاحيهم اليوم وأما نحن ليست لدينا أضحية لننحرها ونؤدي بذلك واجبنا الديني وأنا أقترح عليكم أن نضحي بدماء العدو، أعانكم الله''(١٣٤).

في صباح العاشر من ديسمبر/كانون الأول قسّم البطل القومي "عثمان باشا" جيشه -وقوامه أربعون ألف مقاتل- إلى قسمين متساويين، وهجمت القوة الأولى -وقوامها عشرون ألفًا- على المتاريس الروسية، ساعية إلى

(١٣٤) ظهوري دنشمان، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، إسطنبول ١٩٦٤م، المجلد الثالث، ص١٤٣.

شـقّ خطّ الحصار، أمّا القوة الثانية، فكانت سـتدعم الهجوم الأول بهجوم آخر بعده بساعتين.

اخترقـت القوة الأولى بقيادة البطل القومي "عثمان باشـا" نفسـه خطّ الجبهـة وهاجمت بعزمٍ وحماسـةٍ عظيمَين المواقعَ الروسـيّة، وسـيطرت بالحراب على مواقع عسـكرية تدافع عنها القوّات الروسيّة، لكنّ الروس بفضل التعزيزات المستمرّة استردّوا المواقع والمدافع.

وفي وقت الظهيرة تعثّر جَوَاد الباشا لإصابته بشظيّة ناجمة عن نيران المدفعيّة الروسـيّة، وأصيب "عثمان باشـا" هو الآخر في قدمه اليسـرى، وكانـت زعامـة الباشـا وقوته المعنويّة تحمي بلفن طَوَال خمسـة أشـهر، فأصاب الذعر القوَّات لحظةَ سـماعها خبر موت "عثمان باشـا"، وبدأت تتراجـع، فصُدّ الاقتحام، وحُوصر جيـش بلفن من الأمام والخلف على حدٍّ سـواء، ولم يكن من السـهل على الباشـا أن يستسـلِم وينتهك كرامةَ الجيـش الـذي يمثّله، وقد غمره حزنٌ عميقٌ، لكـن لم يعد هناك أملٌ في الخـلاص، وفـي النهاية قرر الباشـا الاستسـلام بعد تشـاوره مـع القادة المقربين له.

إحدى الملاحم العظيمة

بينمـا كان "عثمـان باشـا" يُنقل من كوخـه -بعد إعلانه الاستسـلام- بمركبـة إلـى مدينة بلفن، إذ بـ"جراندوق نيقولا" شـقيق القيصر يعدو على حصانـه وقـد اقترب من العربـة، ومدّ يده، وضغط بحرارة على يد الباشـا قائلًا:

- أهنّئك على دفاعك عن بلفن، لقد كتبت واحدةً من أعظم الملاحم التاريخيّة.

وقام الضبّاط الروس المحيطون به بتحيّة "عثمان باشا"!

قال الجنرال الروسي الشهير "أسكوبالاو":

- هـذا الوجـه، وجـه قائد عظيم، وأنا سـعيد غاية السـعادة لرؤيتك، "عثمان" البطل قائد منتصر، وسيظلّ منتصرًا رغم استسلامه!.

"مثلك لا يؤخذ سيفه"

بينما كانت مركبة الباشـا المكشـوفة في طريقها نحو معسـكر الروس بـ"بوغوت"، إذ بفرقة كازاك تصل وتخبرهم بمجيء الإمبراطور إلى بلفن، وأنّـه ينتظرهـم هناك؛ فعـادوا به مرّةً أخـرى إلى البلدة، واسـتُقبل "عثمان باشـا" عنـد وصوله إلى باب المنزل حيث القيصـر بهتاف الضباط الروس المنتظرين عند الباب وعددهم نحو خمسين ومائة.

كان القيصر ينتظر عثمان باشا على أحرّ من الجمر، وسأله مترجمه:

- إلـى أيـن كنتم تذهبون، ألـم تكونوا على علم بـأنّ جند الروس قد أحاطوا بكم من كلّ جانب؟

أجاب "عثمان باشا":

- كنتُ أدرك هذا، لكنّني كنت سأقتحم جندكم في سبيل الوصول إلى أيّ مكان أستطيـع الوصول إليه.

- ولِمَ لم تدع سلاحك؟

– أرسلتني دولتي هنا للحرب ولم تقل لي: ''اترك سلاحك، أينما رأيت عدوك''، فأحيانًا يُمكن إحراز النصر رغم كثرةِ العدوّ، كما هو الحال عند حربنا معكم.

بعد أن استمع القيصر إلى كلمات الباشا بإعجابٍ عظيمٍ، قال:

– عظيم! قائدٌ مثلك لا يؤخَذ سيفه، احمل سيفك هنا وفي روسيا، ولسوف ترى أنّك تُستقبل في روسيا استقبال مشير روسيّ.

كانت إعادة القيصر السيف للبطل "عثمان باشا"، واستقباله له كأنّه مشير روسيّ يعكس مدى التقدير الذي قوبل به!

وفاةُ البطل القومي "عثمان باشا"

نُقل عثمان باشا عن طريق "بوخارست"[١٣٥] إلى "خاركوف"، وبقي هناك ثلاثة أشهر، ثمّ وصل إلى إسطنبول في الثالث عشر من مارس/آذار عام (١٨٧٨م)، وهناك قُوبل بهتاف وحفاوة عظيمين من الشعب، وأطراه السلطان "عبد الحميد الثاني" قائلًا:

''أَقْبِلْ يا عزيزي "عثمان"، بارك الله فيك أيّها البطل''.

في اليوم التالي عُيّن الباشا مشيرًا خاصًّا، وبعد شهرين ونصف الشهر في الثامن والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٧٨م) عُيّن مشير "الما بين"[١٣٦]، أي: مشير القصر العثمانيّ إلى جانب بقائه في وظيفة المشير الخاصّ،

(١٣٥) عاصمة دولة رومانيا.

(١٣٦) "ما بين (*Mabeyn*)": القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين الدوائر الخارجيّة؛ وهو المكان الذي كان يقضي فيه السلطان يومه إن لم يكن يخرج من القصر، والأمور التي يتم عرضها على السلطان من لدن الصدر الأعظم ترفع إلى هذه الدائرة، فيطلع عليها السلطان ويأمر بما يراه. سهيل صابان: ص ١٩٨.

وظلّ البطل القومي "عثمان باشا" في وظيفته اثنتين وعشرين سنة كاملة حتى وفاته، وكان خلال تلك المدّة يقضي جلّ وقته في القصر.

في الخامس من أبريل/نيسان عام (١٩٠٠م)، أُقيمت صلاة الجنازة على بطل بلفن عقب انتقالِه إلى رحمة الله عن عمرٍ يناهزُ السابعة والستّين، وبعد إقامة الصلاة من جمعٍ عظيمٍ بلغ عشرات الآلاف في جامع الفاتح، وُورِي في الثرى بمقبرةٍ بالجامع نفسِهِ، وبعد مدّة شيد السلطان "عبد الحميد الثاني" مقبرةً أنيقةً للباشا.

نتحدّث الآن عن القائد الشاب، الهمام المقدام، الذي غيَّرَ مسار الحرب عندما زرعَ ستّةً وعشرين لغمًا بميناء «قرانلق» في منطقة «أرنكوي» بالمضيق أثناء محاولات الأساطيل البريطانيّة والفرنسيّة عبور مضيق «الدردنيل» خلال الشهور الأولى من عام (١٩١٥م)..

إنه -بحقٍّ- بطلٌ لم يُقِم للموت وزنًا، فلقد قال:

"لا ينبغي لنا أن نعود دون أن ننهي مهمّتنا".

إنه قائد سفينة الألغام «نصرت»، إنه شهيد النصرِ والإصرار..

«إسماعيل حقّي الطُبْخَانَوِي»